قبل أن يبدأ التاريخ فى مصر

طلب إلى أحد العلماء ممن يقومون بدراسة عصر ما قبل التاريخ أن يكتب مؤلفاً يستعرض فيه نشأة الحضارات الأولى فى العالم ومراحل تطورها فى الأعصر الغابرة وقبل أن يبدأ التاريخ ، فأتم مؤلفه ، واعتمد فى دراساته على ما كشفت عنه الآثار القديمة من الآلات الحجرية التى كان يستخدمها الانسان ، والأوانى الفخارية التى كان يستعين بها فى معيشته ، كما اعتمد على غير ذلك من مخلفات الانسان الأول ، فى عصر لم يكن فيه الانسان قد اهتدى إلى الكتابة وتسجيل الوقائع تسجيلا لا يخلو من غرض [1] .

وبذلك قامت دراسات ذلك العالم على أساس استخلاص الحقائق من الآثار والمخلفات ، دون الاعتماد على نصوص وصف بها الأولون أعمالهم ، وسجلوا فيها الوقائع كما شاءت لهم غاياتهم ، أو كما مالت بهم أهواؤهم . وفى ختام مؤلفه وردت عبارة غضب لها المؤرخون بعض الغضب ، أو هى غاظتهم بعض الغيظ . فهو قد قال إنه انتهى من دراسة عصر ما قبل التاريخ ووصل إلى فجر التاريخ ، حيث لا يترك الناس أعمالهم ومخلفاتهم تتحدث عن نفسها ؛ وإنما يتحدثون هم عنها فى نصوص يسجلونها بأنفسهم ، ويتركونها للمؤرخين ليقرءوا فيها صورة مغرضة عن تلك الأعمال ، وليفهموا عنها ما تيسر لهم وما شاءت ميولهم الفكرية أن يفهموا ، ثم ليرتبوا عليها من النتائج ما قد يكون خالصا للحق ، ولكنه فى غالب الأحيان يأتى مشوباً بالغاية غير مجرد من الهوى . فالعصر التاريخى ، فى رأى هذا العالم ، يمتاز بأنه عصر الميول والأحكام الشخصية ، من جانب من يسجلون الوقائع ساعة تحدث ، ومن يدرسونها فى النصوص بعد ذلك من المؤرخين . أما عصر ما قبل التاريخ

---

(١) يشمل عصر ما قبل التاريخ مراحل طويلة تنتهى باكتشاف الانسان للكتابة وتسجيله للحوادث فى النقوش والوثائق وغيرها . وبظهور الكتابة يبدأ العصر التاريخى .

فان الآثار تتحدث فيه عن نفسها وتبين عما كان هناك من حضارة بياناً صامتاً ولكنه أصدق من الكلام ، أو هو على الأقل بعيد عن الهوى والغاية . . . أو يمكن أن يكون مجرداً منها إلى أبعد الحدود .

وسواء أصح هذا الزعم من جانب صديقنا الأثرى الذى يدرس عصر ما قبل التاريخ أم لم يصح ، فان الشئ الطريف أن عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخى متداخلان بعض الشئ ، ولم يحدث الانتقال من أحدهما إلى الآخر دفعة واحدة ولا فى وقت واحد . فبداءة التاريخ ليست واحدة فى كل مكان ، وفجره لم يطلع على الناس فى مختلف الأقطار فى وقت واحد ، وإنما سبقت بعض الأقطار غيرها ، فبدأ فيها التاريخ فى عهد متقدم . ومن تلك الأقطار مصر ، التى يقال إن التاريخ المكتوب قد بدأ فيها منذ أواخر الالف الرابعة قبل الميلاد ؛ وإن كان بعض المؤرخين يرى أنه قد بدأ قبل ذلك . فالأسرة الأولى قامت فيما يبدو حوالى القرن الثالث والثلاثين قبل ميلاد المسيح . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نستبينه واضحا لا لبس فيه هو أنه عند ما بدأ التاريخ فى مصر كان المجتمع المصرى قد اكتمل فى تطوره ، واستقر فى نظمه إلى حد بعيد . فالزراعة كانت فنا راقياً يقوم على الرى وتنظيم جريان مياه الفيضان فى الحيضان ؛ والصناعة وغيرها من حرف الحياة العملية والانتاجية كانت كلها قد بلغت شأواً بعيداً من التقدم بالنسبة لذلك العهد ؛ والتجارة والصلات المادية والثقافة كانت تربط بين مصر والعالم الخارجى لا سيما فى الشرق القريب وشرق البحر المتوسط ؛ ونظام المجتمع الداخلى كان قد تطور واستقر ، فحلت الوحده الإقليمية ووحدة القرية أو مجموعة القرى المتجاورة محل الوحدة القبلية ؛ وحياة أهل الوادى كانت على الجملة قد ارتبطت بالبيئة ارتباطاً قويا فى أقاليم أو أوطان إقليمية أول الأمر ، ثم فى إقليمين كبيرين هى مصر السفلى ومصر العليا مما مهد السبيل للوحدة الشاملة ؛ ونظام الادارة المحلية كان قد اتخذ صورة تشبه من بعض الوجوه ما احتفظت به مصر خلال الأعصر التاريخية واعتزت به حتى وقتنا الحاضر ؛ والدولة كلها كانت قد انتظمت أمورها فصار لها فرعون واحد يرنو تاجه للوحدة الشاملة ؛ والديانات والمعتقدات كانت قد بلغت غاية من الكمال النسبى تمثلت فى أن المصريين منذ ذلك الوقت كانوا يعيشون ويعملون

من أجل الآخرة ، فسمت أرواحهم ، وأشبعت نظرتهم إلى الحياة بما ارتفع بها إلى أفق يربط بين الدنيا والآخرة ويجمع بين حاجة الجسد ونزعة الروح . وهكذا كانت حياة المصريين عند مطلع التاريخ قد بلغت حداً من التطور والكمال يكاد لا يقل كثيراً عما صارت إليه حالهم وأمورهم فى بقية العهد التاريخى . وإذن فان اتحاد الوجهين ، وظهور مصر التاريخية بحضارتها المعروفة ، لم يكن « مطلعاً » لعهد جديد ، بقدر ما كان « خاتمة » لعهد طويل من التطور والتقدم . ولعلنا إن نحن أردنا أن نتفهم المجتمع المصرى وأسسه الأولى ونظمه التى استقرت على الزمن . . . لعلنا أن نجد سبيلنا إلى مثل هذا الفهم الصحيح إذا نحن رجعنا إلى الوراء هذه القرون العديدة ، لنتتبع تطور الحياة فى مصر خلال عهد ما قبل التاريخ .

ويقسم العلماء الباحثون هذا العهد الطويل فى مصر ثلاثة أقسام : هى العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الحديث ، ثم عصر بداءة المعدن أو عصر ما قبل الأسرات . والعصر الحجرى القديم أطولها ؛ لأنه يشمل أغلب العصر المعروف عند الجيوجولبين بالبلايستوسين . وكانت حضارات الانسان فيه بدائية ، لم تختلف فى مصر عن غيرها من جهات العالم القديم . كما كان النيل مختلفا فى جريانه وامتداده عنه فى الوقت الحاضر ؛ فكان ينبع فى بلاد النوبة وشمال السودان ، ولا تمتد منابعه إلى هضبة الحبشة ولا إلى الهضبة الاستوائية ؛ وإنما كان نيل مصر والسودان — كما يمكن أن نسميه — يعتمد على الأمطار المحلية فى حوضه الشمالى خلال ما يعرف بالعصر المطير . كذلك لم تكن صحارى مصر والسودان كما هى عليه اليوم من جفاف ؛ وإنما كانت تسقط بها أمطار متوسطة ، اكتست بسببها أرض الصحراء بالأعشاب والأشجار المتفرقة ؛ وعاش الحيوان وسعى الانسان متنقلا فى تلك البيئة المكشوفة . وقد عثر على آلات حجرية من هذا العصر فى جهات متفرقة من صحارى مصر ؛ كما وجدت بعض تلك الآلات مطمورة فى مدرجات نهر النيل ورواسبه الجانبية . والشئ الطريف أن مصر بدأت أول الأمر متشابهة تمام الشبه مع غيرها من أقطار العالم القديم ؛ ولكن حضاراتها الحجرية أخذت بالتدريج تتخذ طابعًا محليا خاصا ، ميزها من غيرها من الأقاليم . والظاهر أن الجفاف أخذ يحل بالتدريج ، فقل النبات فى الصحراء ؛

وهجرها الحيوان والانسان إلى مجرى النيل أو إلى قيعان بعض الواحات ؛ وأدى ذلك إلى تطور الحضارة فى مصر تطوراً محليا ، أعطاها فى النهاية طابعها المصرى الخاص . ثم أخذ ذلك الطابع فى التطور والوضوح ؛ حتى إذا ما جاء العصر الحجرى الحديث كانت حضارة مصر والسودان قد اختلفت تمام الاختلاف عن حضارات غيرها من بلدان العالم القديم ، بما فى ذلك فلسطين والشرق الأدنى ، رغم ما بينها وبين هذا الشرق من صلات القربى فى المكان والسكان .

ويدأ العصر الحجرى الحديث فى مصر فى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وبظهوره كان الانسان قد تعلم استنبات النبات ولا سيما القمح والشعير واستئناس الحيوان ولا سيما البقر والأغنام والخنازير ؛ كما تعلم صناعة الفخار وصقل الآلات الحجرية وإتقان صنعها . وبذلك كله تقدمت الحياة والمدنية ، وخطت نحو الاستقرار والارتباط بالأرض والاقليم المحلى أولَ الأمر ، ثم بالوطن الكبير بعد ذلك . وقد عثر على آثار الانسان من هذا العهد فى جهات مختلفة من مصر قرب الوادى وفى منخفضات الصحراء . فعند الحافة الغربية للدلتا ، فى مكان يقال له مرمدة بنى سلامة قرب الخطاطبة الحالية ، عثر على قرية قديمة ، يقال إنها أقدم قرية عرفها التاريخ أو ما قبل التاريخ . وكان الناس يعيشون فيها فى أكواخ صغيرة من القش المغطى بالطين ، يفلحون الأرض الطيبة على حافة الوادى ، ويربون الحيوان ولا سما الخنازير والأغنام ، ويقتنصون صيد البحر ، ويصطادون فى الماء والمستنقعات . وكان النظام الاجتماعى على شئ ظاهر من التقدم والتعقيد ؛ فالقرية كان يتوسطها طريق أو « شارع » ، أى إنها كانت « مخططة » تخطيطاً بدائياً ، ولكنه يدل على أن الأفراد لم يكونوا أحراراً يقيمون أكواخهم حيث شاءوا ، وإنما كان هنالك حكم يردهم إلى شئ من نظام ؛ وتلك مرتبة لم تبلغها كثير من الجماعات إلا فى أعصر متأخرة ، بل لم تبلغها بعض الجماعات حتى الآن . وفضلا عن ذلك فقد كانت قرية مرمدة بنى سلامة قرية كبيرة تمتد إلى أكثر من نصف كيلومتر ؛ وكان أهلها على شئ من التقدم الروحى ، لهم معتقداتهم التى تقوم على الايمان بالبعث ؛ فهم كانوا يدفنون بعض الزاد مع موتاهم الذين وجدت مقابرهم بين المساكن ، وتوجه فيها وجوه الموتى نحو الشرق ، كأنما

تستقبل الشمس المشرقة أو تواجه النيل والماء والأرض الطيبة مصدر الحياة والخيرات .

وفى مصر العليا وجدت آثار هذا العهد فى مكان يدعى دير تاسا بمديرية أسيوط . ولكنها آثار أفقر كثيراً من آثار الدلتا . فالمساكن قليلة مبعثرة ، مما يدل على قلة السكان ؛ والقرى أو ما يشبهها ليست مخططة ، مما يدل على أن النظام الاجتماعى لم يكن قد بلغ من الشأو ما بلغ فى مصر السفلى إذ ذاك . كذلك كانت مقابرهم بعيدة عن أكواخ السكن ، مما يدل على أنهم كانوا مختلفين عن سكان الشمال حتى فى معتقداتهم الدينية .

وبين الوجهين هناك منخفض الفيوم ؛ وكانت تقع فيه بحيرة كبيرة أعلى كثيراً من بركة قارون الحالية ، عاشت جماعات البشر على حافاتها ، واشتغلت بزراعة الشعير والقمح ورعى الأغنام وصيد البر والبحر . ولكن جماعات الفيوم اختلفت من بعض الوجوه عن جماعات وادى النيل . فالحياة هنا لم تكن مرتبطة بماء النيل وفيضانه ، وإنما كانت الزراعة تعتمد على بعض الأمطار المحلية ؛ إذ المعروف الآن أن بحيرة الفيوم فى العصر الحجرى الحديث قد انفصلت عن النيل ، وأن الأمطار تجددت بعض الشئ بعد أن كان الجفاف قد حل بانقضاء العصر المطير بالمعنى الصحيح ؛ فكانت الزراعة فى أراضى الفيوم تعتمد على الأمطار الشتوية القليلة بدلا من الاعتماد على الرى كما هى الحال فى وادى النيل . كذلك كانت حياة الزراع فى الفيوم تختلط بحياة الرعاة الليبيين ، وتتأثر بطرائق الصيادين والمشتغلين بصيد الأسماك فى البحيرة . فهى إذن كانت حياة مختلفة ذات طابع يختلف من بعض الوجوه عن حياة سكان الوادى فى العصر الحجرى الحديث والبلاد اللاحقة به .

والحق أن الأصل المباشر للحضارات التاريخية فى مصر ينبغى أن نبحث عنه فى وادى النيل ذاته ، لا فى الواحات المجاورة كما قال بعض الباحثين ، ولا فى خارج مصر إلى الشرق فى آسيا المجاورة أو إلى الجنوب فى إفريقية الشرقية كما كان يقال إلى وقت قريب . ولئن كانت مصر قد تأثرت من غير شك بجميع هذه البلدان المجاورة والمخالطة ، فان هذه المؤثرات الخارجية إنما أضافت إلى تنوع مظاهر المدنية والحضارة فى مصر ، ولكنها لم تطمس معالم الحضارة المصرية ولم تطغ عليها . ولعل خير ما نستبين به أصول الحضارة

التاريخية ونظمها الأولية هو أن نستعرض مدنيات مصر خلال عصر ما قبل الأسرات ، وهو العصر الذى يبدأ حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد ، وينتهى بظهور الأسرة الأولى ، وتوحيد الوجهين على يد نارمر ، الذى اشتهر باسم مينا فرعون مصر الأول .

وفى هذا العصر أنتجت كل من مصر السفلى ومصر العليا لونها الخاص من الحضارة . ولكن مصر العليا كانت سباقة فى أول الأمر ؛ فظهرت فيها حضارة تعرف بحضارة البدارى ، نسبة إلى بندر البدارى فى شرق النيل بمديرية أسيوط . وقد امتازت بتفوق فى الصناعة ولا سيما صناعة الفخار ، حتى إنه ليقال فى غير مغالاة إن فخار هذا الدور كان أكثر إتقانا فى صنعه وجمالا فى شكله ودقة فى ذوقه من أى فخار صنع فى مصر فى الأعصر التاريخية اللاحقة [١] . وقد يبدو هذا غريباً ، ولكننا نستطيع تفهم اضمحلال صناعة الفخار بعد ذلك إذا أدركنا أنه كلما تقدمت صناعة الأوانى المعدنية حلت هذه الأخيرة محل الأوانى الفخارية فأهملت واضمحلت . وهذا هو السر فى أن الفخار تأخرت صناعته فى الأعصر التاريخية عنها قبل أن يبدأ التاريخ ، بل قبل أن ينتشر استعمال المعادن .

على أن الشئ الملحوظ فى حضارة البدارى أن سكانها يرتبطون فيما يبدو ببعض سكان شرق السودان . وأغلب الظن أنهم انحدروا من سلالة حامية قديمة ، هى التى عمرت وادى النيل أو أغلبه ، فانتشرت فيه نحو الشمال ونحو الجنوب . وقد كان لهؤلاء الأقدمين نظام اجتماعى معقد نستطيع أن نتفهم شيئاً عنه من دراسة مقابرهم وجباناتهم حيث يدفن الشبان فى قسم خاص منعزل عن مقابر النساء ؛ وهذا فى حد ذاته ربما كان معناه أن نساء الجماعة كان يستأثر بهن عدد محدود من الرجال البارزين فى المجتمع . ولا غرو ، فالنساء فى هذا الدور القديم من الحضارة كن يعتبرن ثروة عظيمة ، فعلى جهودهن تقوم الزراعة ، وعلى قدر عدد الزوجات تكون ثروة الرجل ومساحة الأرض التى يستطيع أن يفلح

وبعد دور البدارى جاء دور آخر من الحضارة فى مصر العليا . ولكن

---

(١) المقصود هنا « الفخار » لا « الخزف » بالطبع

حضارة الدلتا ومصر الوسطى كانت قد تقدمت إلى حد ظاهر بعيد ، تشهد بذلك حضارة جرزة فى مصر الوسطى الشماليه وحضارة المعادى قرب راس الدلتا. والظاهر ان أهل الشمال قد ازدهرت حضارتهم وعلا شأنهم ، فتوغلوا أثناء الدور الجرزى فى الصعيد حتى وصلوا قلبه ، وأثروا فى سكانه وفى حضارته تأثيراً بالغاً ؛ وآتى تزاوج الحضارتين ثماره ، فازدهرت الحياة فى مصر ، وتقدمت صناعة المعدن ، كما تقدمت الفنون الدقيقة ؛ واحتكت مصر — ولا سيما أيام حضارة المعادن بل قبل ذلك — بالعالم الخارجى والشرق الأدنى ، فأخذت عنه وأنفذت إليه بعض ألوان مدنيتها وصناعاتها ؛ ثم ازداد الاحتكاك واتسع مداه ، حتى ليقال إن اتصالات مصر فى الدور السابق للأسرات مباشرة قد امتدت من الفرات وما وراءه شرقا إلى أرض ليبيا وما وراءها فى جوف الصحراء وشمال إفريقية غرباً ، ومن جزائر البحر المتوسط شمالا إلى قلب السودان وجنوبه ، بل إلى هضبة شرق إفريقية وبعض أطراف القارة فى أقصى الجنوب . وبهذا كله اتسع أفق المصريين ، وأخذت جماعاتهم فى داخل أرض الكنانة تستشعر وجودها كجموعة قائمة بذاتها ، لها طابعها الحضرى الذى يجمع بينها من جهة ، ويميزها من العالم الخارجى وجماعاته وحضاراته من جهة أخرى . وكان هذا إيذاناً بنهوض الشعور الاقليمى فى مصر ، وازدياده قوة على مر الزمن ، حتى تبلور آخر الأمر ، وانتهى إلى الوحدة الشاملة بين الدلتا والصعيد .

ولكن شعور الوحدة بين سكان النيل الأقدمين يستحق المزيد من البحث ومن استقصاء مظاهر الصلة المتطورة بين الانسان وبيئته ، أو إن شئت فقل بين النيل وأبنائه ممن يعيشون على ضفافه فى أرض مصر الطيبة . ذلك أننا إذا رجعنا إلى دراسة الآثار وجدنا أن أماكن السكنى فى العصر الحجرى الحديث وفى دور البدارى وما تلاه مباشرة من أوائل عصر ما قبل الأسرات ، كانت كلها تقع عند حافة الصحارى المجاورة للوادى بعيداً عن التربة السوداء ؛ فكانت كلها بمنأى عن مجارى الفيضان وأخطاره . ولم تكن الصلة قوية إذ ذاك بين هؤلاء السكان الأقدمين وبين جريان المياه فى النيل . بل لقد رأينا فى الفيوم مثلا أن الزراعة كانت تقوم على المطر بدلا من الرى . أما ابتداء من دور الحضارة الجرزية فاننا نجد الآثار فى الأرض الزراعية نفسها

(أو عند حافتها) . ويظهر أن السكان هبطوا منذ ذلك العهد إلى « قاع الوادى » وإلى جوار مجرى الماء . وهنا ارتبطت حياتهم بالمياه الجارية ، فتعرضوا لأخطارها المشتركة فى الفيضان ، مما دعاهم إلى التعاون والوحدة لكى يدفعوا تلك الأخطار ؛ كما اضطروا فى الوقت نفسه إلى تقسيم أرض الوادى إلى حياض لتنظيم ريها بمياه الفيضان ؛ وهذا فى حد ذاته زاد من ارتباطهم بالأرض والبيئة المحلية ؛ فترك الناس « الوحدة القبلية » ، وصارت « الوحدة الاقليمية » هى طابع المجتمع ؛ كما يستدل على ذلك من شارات الأقاليم وشعاراتها التى تراها مرسومة على أوانى الفخار من ذلك العهد . وكانت هذه الوحدة الاقليمية بداءة وطريقاً إلى وحدة أكبر منها ؛ لا سيما أن إلى قرب الناس من مجرى الماء قد مهد لهم سبيل الاتصال والاحتكاك فى التجارة والادارة وغيرها عن طريق هذا الشريان الخالد ، الذى تكاملت فيه قوى الطبيعة ، وأتم بعضها بعضاً على نسق بديع ، فجرت مياه النهر من الجنوب إلى الشمال تدفع الفلك نازلة مع التيار ، وجرت الرياح السائدة من الشمال إلى الجنوب تدفع الفلك مصعدة ضد التيار . وبهذا كله اتسعت الوحدة ، وتشابكت حلقاتها فى الصعيد ثم فى الدلتا ، حتى انتهى الأمر بظهور نارمر أمير طينة وحاكم مصر العليا ، الذى أتم ما مهدت الطبيعة له ؛ فأقام قاعدته فى منف ، ثم فتح الدلتا ، ووحد الوجهين فى قطر واحد .

وهكذا جاءت هذه الوحدة السياسية تسجيلا لما بين الوجهين من وحدة طبيعية . بل هكذا انتهى عهد طويل من التطور المادى والاجتماعى والادارى إلى هذه الوحدة الشاملة فى حياة المصريين ؛ وتمشى مع هذا التطور العام تطور فى ثقافة أهل مصر كان من ثمراته تلك الكتابة التى عرف بها الانسان كيف يسجل الوقائع . والظاهر أن وقائع الدور السابق للوحدة مباشرة كانت من الضخامة والأهمية بالنسبة لأبناء الوادى إذ ذاك بحيث سعوا إلى تسجيلها والمباهاة بها على نحو من الأنحاء ؛ فرأينا نارمر ذاته يسجلها على لوحته المشهورة ؛ ثم رأينا خلفاءه من حكام مصر وملوكها الأولين يستمسكون بهذا التسجيل ويتابعونه كل فى دوره ، حتى تكامل لدينا سجا الحوادث دوراً بعد دور ، واتخذت قصة التاريخ شكلا جديداً غير قصة ما قبل التاريخ ؛ وجاء ذلك العهد الذى تحدث عنه عالمنا الذى أشرنا إليه أول

هذا الحديث ، فأشفق من أن يعالجه ، وهو لم يعتد قراءة النصوص وفهمها على وجهها الصحيح أو المقارب من أن يكون صحيحاً ، بل هو لم يعتد إلا أن يدرس الآثار التى خلفها الانسان ، وأن يدع تلك الآثار تحكى قصتها الصامتة ، التى يجد فيها أمثال هذا العالم صمتاً أبلغ من الكلام !

أرأيت معى يا صاحبى القارئ أننا إذ نتحدث عن عصر ما قبل التاريخ إنما نتحدث عن عهد سحيق ولكنه لا يخلو من روعة ؟ وأننا إذ نتحدث عن مطلع التاريخ لا نقصد بداءة القصة البشرية فى الحضارة بقدر ما نقصد نهاية عهد طويل جدا من التطور والتقدم فى حياة الانسان ؟ وأننا إذ نعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص الناطقة إنما نستند فى دراستنا إلى أساس من البيان الصامت الصادق ، بدلا من أن نعتمد على نص قد يكون صادقاً وقد لا يكون كذلك ، وهو فى أغلب الأحيان منحرف عن الحق بمقدار يسير أو خطير ؟ إن كنت قد رأيت معى ذلك كله فلا شك أنك تقدر خطورة هذه الدراسات السحيقة ، التى تعالج قصة الانسان وحضارته خلال آلاف عديدة من السنين ، بل خلال عهود أرجو ألا أزعجك كثيراً إن قلت إنها قد تمتد إلى مئات قليلة من آلاف السنين ! أو هى تمتد فى القليل إلى عشرات الآلاف فى العصر الحجرى القديم ، وتبلغ آلافاً سبعة أو تزيد منذ بداءة العصر الحجرى الحديث فى بلد كمصر . ولئن نحن عرفنا أن مجتمعنا المصرى كان مكتمل التطور عند ما بزغ فجر التاريخ وعرف الناس الكتابة والتسجيل ، برزت أمامنا حاجتنا الملحة إلى أن نعنى بهذا العهد الطويل عناية خاصة ، فنكشف عن نشأة المدنية وتطورها فى مصر قبل التاريخ ، ونحاول بذلك أن نتتبع أسس الحياة ومقوماتها فى وادى النيل ؛ ونمهد لأن نفهم نهوض الحضارة التاريخية على أساس جديد . ولئن نحن فعلنا ذلك فسنجد أن حضارة مصر الفرعونية لم تنشأ بين ليلة ويوم ، ولم تكن حضارة مستعارة دخلت إلينا من الخارج ؛ وإنما هى نشأت فى أرض وادينا ، وتطورت فى تربته الطيبة خلال أعصر طويلة ، يرجع أولها فى القليل إلى بداءة العصر الحجرى الحديث ، وتتضح معالمها المصرية المحلية فى أواسط عصر ما قبل الأسرات ، ثم تضطرب اضطراب النضوج والعنفوان قبيل وحدة الوجهين ، حتى تتخذ

صورتها الكاملة تأبدع ما تكون خلية الأم عند ظهور فرعون الأول وقيام الأسرات .

أيجيء يوم نعنى فيه بهذا التراث الأقدم من قصة الحضارة فى حياة المجتمع المصرى الأول ؟ لعل وعسى ! . . . بل استغفر الله . . . فلعل هذا اليوم أن يكون أدنى وأقرب مما يبدو لى ولفريق من الناس !

سليمان حزين